المورد – العدد 3 – العام 2000

بحوث ودراسات

د. ناجي التكريتي _ كلية الآداب _جامعة بغداد

الحكمة في شعر علي الشرقي

الشاعر الشيخ علي الشرقي من شعرائنا الأوائل المبدعين في هذا القرن. شعره يزخر بالوطنية الجياشة، ويتدفق بالشعور الوطني الأصيل. والصور الرقيقة، والتدفق المرهف، صفحات واضحة في شعر الشاعر.

مهمتي ستقتصر على اظهار الجانب التأملي في شعر الشاعر، وهوما نطلق عليه شعر الحكمة، أو نذهب إلى أبعد من هذا فنسميه : الشعر الفلسفي. آمل أن أنجح في إلقاء الضوء على ما جاء في شعره من حكمة.

إني أتساءل أولاً، هل تفلسف شاعرنا في شعره، وهل كان يتمثل الحكمة؟ لا شك أنه قد درس مع الشعر وأدوات اللغة، كتب الأدب والفلسفة وعلم الكلام والأدب، وما يقود إلى الحكمة من كتب دينية وكتب التاريخ والأخبار.

يقول أرسطو أن التفلسف مبعثه الدهشة، وذلك أن يتعجب الإنسان من حالة معينة أو حالات، سواء كان مبعث ذلك التعجب الإنسان أو الكون. بعد ذلك أقول ، رب إنسان يدهش من حالة معينة طارئة، ويتساءل ويتوقف عند هذا الحد، بينما يتبع الفيلسوف أسلوبا في التفكير لكي يجيب عن ذلك التساؤل.

نحن نعلم ان الشاعر كان في العصر الجاهلي حكيم القبيلة. لماذا لا نطلب الآن من الشاعر أن يتفلسف وأن يتعاطى الحكمة ما استطاع إلى ذلك سبيلا. الحكمة للشعر قوة، وإذا كانت ميزة الشعر الأولى الرقة، فلا بأس على الشاعر السلس أن يسعى إلى طريق التأمل وسبر أغوار الوجود. إذا كان أرسطو يعطي للفيلسوف درجة أعلى من الشاعر، فأنا أقول ينبغي للشاعر، الذي حباه الله بنعمة الإلهام، أقول ينبغي له أن يتعامل مع الأفكار. أذهب إلى أكثر من هذا فأقول أن على الشاعر أن يكون هو خالق أفكار. الحكمة ليست موقوفة عل أحد. وإن الشاعر الذي يدرك مسيرة التاريخ ويفهم طبيعة الانسان، يستطيع أن يمزج الفكرة العميقة بالكلمات الرقيقة مزج اللحمة بالسداة.

الشاعر الذي تميز بموهبة شعرية مكينة لا بد أن تكون غايته خيرة ، فيدعو إلى الفضيلة ويسعى إلى تحقيق الخير. لابد إذن للشاعر أن يكون صاحب قضية، ولابد أن يكون الشاعر هادفاً. الشاعر الحق من يكون

مندفعا اندفاعا ذاتيا، والتزامه نابع من صميم اعتقاده. الشعر الحق، إذن، ما كان منسجما بين جزالة اللفظ وقوة المعنى. أكرر القول أنه إذا كان الجرس الموسيقي ضروريا للشعر، فإن حكمة الفيلسوف ضرورة، كي يدرك الشاعر طبائع الأشياء.

إن أسمى ما يستطيعه الشاعر أن يكتب شعراً فلسفياً. ولكن ليس من السهل أن يكتب الشاعر أو الفيلسوف شعراً فلسفياً. شعراؤنا، بعامة، زاولوا الحكمة ولم يكتبوا شعراً فلسفياً. لعل أول من بدأ بمزاولة مزج الحكمة بالشعر هو زهير بن أبي سلمى. كثير من فلاسفتنا جربوا نظم الشعر الفلسفي ففشلوا. لعل ابن سينا قد نجح بقصيدته العينية أن يقدم شعراً فلسفياً إلى حد معين، إذا ما علمنا أن الأفكار الفلسفية التي قدمها ابن سينا في قصيدته مسبوق بها من لدن فلاسفة سابقين. متصوفة الإسلام على نحو عام عالجوا هذا النوع من الشعر. وكاد بعضهم ان ينجح في كتابة الشعر الفلسفي كالحلاج ورابعة وابن عربي وابن الفارض كأمثلة على ذلك.

إننا نفخر بالجاحظ لأن أدبه يعلم العقل. وإننا نفخر بأبي حيان التوحيدي لأنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء. برأيي أن الجاحظ والتوحيدي أعظم كاتبين في تاريخنا الأدبي والسبب يعود لأنهما مارسا الفلسفة قراءة وكتابة.

في الشعر ما زال بعضنا يفضل المتنبي، وبعضنا يميل إلى المعري في صدارة الشعر العربي. الأهم من هذا هو أن سبب تصدرهما معاً أنهما تعاطيا الحكمة في الشعر. نحن نُكبر أبا تمام وربما نفضله على البحتري، والسبب أن أبا تمام حكيم في شعره، مع العلم أن شعر البحتري أكثر رقة وسلاسة. إننا لم نضع أبي نؤاس في الصدارة ، مع أنه شاعر كبير ومجدد وأجاد في كل صنوف الشعر بما فيها الزهد.

في القرن العشرين حاول الشاعر جميل صدقي الزهاوي أن يتفلسف في شعره، وكان يود أن يُخاطب بالفيلسوف ولكنه لم يكن فيلسوفا بأي حال من الأحوال. الفيلسوف هو الذي يأتي بنظرية لم يسبقه إليها أحد من قبل. إذا أردت أن أعمم المقولة ، أو أبسطها، فكل إنسان هو فيلسوف إلى حد ما، ولكن شتان ما بين الإنسان الحائر المتسائل دون جدوى وبين الإنسان صاحب العمل الفكري المنظم على وفق منهج معين.

الشاعر أحمد الصافي النجفي من شعرائنا الكبار في هذا القرن ، الذي تفلسف هو أيضا في شعره ونظر إلى الإنسان والأشياء نظرة متأمل حكيم يصبو إلى أن يصل إلى حقائق الأمور.

الشاعر الشيخ علي الشرقي من الرواد الأوائل في هذا القرن مارس قول الشعر وبحكم نشأته في مدينة النجف لابد أنه قرأ كتب الفلسفة جنبا إلى جنب مع كتب الأدب ودواوين الشعر وهذا شيء معروف لطلاب الدراسات الأدبية في طرق التعليم في المدارس العلمية. أود في دراستي هذه أن أتبع تعامل الشاعر مع الفكر وآمل أن أنجح في هذا المسعى. أنها محاولة مني لرصد حكميات الشاعر في شعره.

تطالعنا في أول قصيدة في الديوان (مناجاة النجوم) أسئلة الشاعر عن نظام الطبيعة، ويذهب في السؤال إلى ما هو خفي فيما وراء الطبيعة. نحن نعلم أن السؤال أول مرحلة من مراحل التفلسف، وأن الفيلسوف الحق من يتعجب من ظاهرة معينة ثم يجيب عن ذلك التعجب بنظرية فلسفية لم يسبقه إليها أحد من قبل.

تتجلى حكمة الشاعر في قصيدة(مقال الناس أكثره محال) إذ أنه يحث هنا على طلب الكمال وانه يعد أن طلب الكمال هو الجمال. بعد هذا فإنه يحذر الذي يرجو دون أن يسعى فإنه سيحصل على اليأس ليس غير. يتبعها في قصيدة(عذراء الشرق) فيلوم أبناء الشرق الذين يبكون على الماضي وينصحهم بالنظر إلى المستقبل والعمل من أجله. إني مع الشيخ علي الشرقي في قصيدته(السيف والقلم) لأنني مثله من انصار القلم.

الشاعر في قصيدة(عجز وقدرة) يتفلسف حقا على طريقة سقراط عندما يقول:

للنفس سير دائب بحيـــــــ تها والموت فترة

إن سقراط ، كما نعلم ، يرى أن الموت هو موت الجسد فقط أو هو انفصال النفس عن الجسد. الدين الإسلامي يرى أيضا أن الجسد هو الذي يموت والنفس خالدة. مهما يكن فإن الشاعر يحاول أن يتأمل أطوار الحياة من الولادة حتى النشور. وهكذا تستمر تأملات الشاعر في القصيدة الآتية (موت وحياة) عن جموع البشر الذين يجيئون ويذهبون ويدخل كلمة فلسفة صراحة عندما يقول:

ارى في الموت فلسفة ترينا حياة لم ترد إلا اتساعا

في قصيدة (العلم وحده) يطري الشاعر العلم ويذم الجهل، ويرى أن الحرمان ليس حرمان المال وإنما الحرمان الحقيقي هو فقدان العلم. في قصيدة (محنة الاخلاص) التي قيلت في انقلاب بكر صدقي يتغنى الشاعر بالحرية التي يراها مأسورة على الرغم من التغني بها، ويأسف على بغداد التي تعيش على نظام الرصاص. الشاعر في قصيدة (تحية بابل) يفخر بأن بابل بلد السحر والمجد ويذكر كذلك بأنها مدينة حمورابي والقانون والفن والجمال فضلا عن أنها مدينة نبوخذ نصر والحدائق المعلقة ومدينة العز والاقدام.

لقد وجدت أن الشاعر يتعامل مع الحكمة في الرباعيات ولا سيما قصيدة (صور ونوازع) ولكنه مع ذلك يبقى شاعرا دون أن يدخل معبد دلفي العتيد. الشيخ علي الشرقي يؤمن صراحة بالعقل في الرباعية الثالثة من (صور ونوازع) ويجعل من الحس أول مراحل المعرفة ولكن العقل هو الحكم الأعلى الذي يقيس والذي شبهه بالرئيس للحواس:

في الرأس مجلس شورى لــه الـدمـاغ رئـــيــسُ

تــبدي القضايـا إلــيــه الـحـواس وهـو يـقـيسُ
فـمـا ســواه طــريــقٌ ولا ســـــواه يــجـــوسُ
والـعـلم بالـغيب لـطـفٌ قـد أُلـهـمـته الـنــفـوسُ

نحن نعلم أن الفلاسفة العقليين منذ سقراط وإفلاطون حتى الآن يركنون في المعرفة إلى قوة العقل. الشاعر قالها خاطرة شعرية ولم يبن على قوله هذا منهجاً فلسفياً كما يفعل الفلاسفة. لا أدري في الحقيقة فيما إذا كان الشاعر قد اطلع على آراء إفلاطون أو أنه قد درس كتبه وتأثر به.

الشيء الذي أثار استغرابي أن فكرة البيت الرابع من الرباعية تتفق تماما مع فكرة الإمام الغزالي الفلسفية. الغزالي يعتقد أن الحس محدود وأن العقل هو الآخر محدود وأن المعرفة تقذف بالصدركالالهام، وأن خير طريق للمعرفة الحقة هو التصوف. يتغنى الغزالي عندما يدرك الحقيقة بالبيت الآتي:

فكان ما كان مما لست أذكره فظُن خيراً ولا تسأل عن الخبر

يبدو لي أن الشيخ علي الشرقي يؤمن بمعرفة العقل داخل نطاق الطبيعة أما فيما وراء الطبيعة فهو يتفق مع رأي الغزالي عندما يقول:

والعلم بالغيب لطف أُقد أُلهمته الـنـفوس

الرباعية السادسة تشير إلى تعامل الشاعر مع الشعراء عندما يذكر صراحة بالأسماء هوميروس وابا العلاء المعري:

إنما ايام هوميروس من عـمر المـعري

لا أعتقد أن ذكره الشاعرين اعتباط ، وإنما لابد أنه قرأ شيئا قليلا أو كثيرا من شعرهما وتأثر به ولا سيما أبي العلاء المعري. البيت الأول من الرباعية نفسها:

اشتكوا من قصر العمر فقابلت بنُكر

تبدو فيها سيماء أبي العلاء المعري واضحة.

والشاعر الحكيم عمر الخيام أثره واضح في البيتين الأول والثاني من الرباعية الثامنة:

يا رب يثمل كل الورى وإنــي صـاحــي

إن يـفسـد الـنـاس طـراً فما يفيد صلاحي

يخيل لي أن روح الخيام ترفرف في أجواء رباعيات الشرقي ولا سيما قصيدة (صور ونوازع) . كذلك أثر الخيام واضح في قصيدة (المزدوجات). لست الآن بصدد مقارنة بين أدب الشاعرين. إني أود أن أقصر دراستي هذه على جانب معين من شعر الشاعر ألا وهو جانب التأمل والحكمة. إني أشعر كأني أسمع سقراط يغني عندما قرأت الرباعية التاسعة عشرة حيث يربط الشاعرما بين حياته قبل الولادة وماذا سيرى بعد الموت:

قبـل موتي هـيهـات أن تشرحوا لي عـالـما لا يُنـالُ إلا بـمـوتـــــي

أنا في البحروالمغيث على الشاطئ هـيـهـات يعـبـر الـبحـر صـوتـي

جـسـدي قـاربٌ وقـلـبـي شـــراعٌ وحـياتي حـبل وعـقـلي نـــوتي

اركـبـوني يـوم الـولادة بـحـرا سأرى سـاحـلا لـه يـوم مـوتي

الشيخ علي الشرقي شاعر، ولهذا فهو يعترف في رباعيته الرابعة والعشرين انه طالما تسائل ولكن تساؤله بقي بدون جواب:

كم سؤال ظل في نفسي من دون جواب

وأنا أقول، لو أجاب الشاعر عن أسئلته جوابا علميا دقيقا لتحول إلى فيلسوف. الأمر ليس بهذه البساطة طبعا فهو شاعر يسأل وليس فيلسوفاً يحل المشكلات. هكذا كان حال المعري الذي نصفه بالشاعر الحكيم فإن أغلب شعره عبارة عن أسئلة سواء كان موضوع السؤال الإنسان أم الكون.

اقرأ البيتين الأول والثاني من الرباعية الثلاثين:

في الشعر موسيقيةٌ وله من الأوزان جوقُ

مـعناه والالفاظ لـو أصغـيتمُ جـرس ودقُ

يذكرني هذا القول بتعريف أرسطو للشعر بأنه لغة مزينة مجملة ولابد من جرس موسيقي للشعر. ولا ادري هل ترأ الشاعر الشرقي كتاب الشعر لأرسطو أو أنه توارد خواطر.

الرباعية الثامنة والسبعون تشير إلى صراع الإنسان مع الحياة وفيها شيء من تشاؤم المعري :

إن أهل الأرض في سيارة جمح السائق فيها فارتطم
زحزحوها فمشت مقلوبة والتوت من أمل نحو ألم
كل جيل قد أتى يصلحها ابتلته بخراب فانهزم
غلط السائق يا سيارتي كل هذا الخبط ما بين الأمم

أود أن أشير إلى أن الحقيقة تقول عكس هذا، لأن الواقع يقول أن كل أمة تبني وتضيف إلى تراث ما تقدم من الأمم، وهكذا تكونت الحضارات، ازدهرت عبر العصور.

أما في الرباعية الثمانين، فيحذرالشاعر من العلم الذي بدأ يلعب بالناس، أو أن الناس بدأوا يلعبون بنتاجات العلم التي بدأت تجلب الشرور على الإنسان في كثير من الحالات:

عظمت محنة العقول بدنيا ملكتها مطامع وعواطف
كرة الأرض ما كفت لعبة الناس فإدلوا من السما بقذائف
أصبح العلم مصدر الشرفي الأر ض فماذا يفيد حاك وهاتف

في الرباعية الثانية والثمانين، يتمنى الشاعر أن تقوم دولة العقلاء، بعيدة عن سلطان الغرائز. لا شك أنه هدف طالما حلم به الفلاسفة والشعراء. أن مقولة أفلاطون في أن يحكم الفلاسفة أو يتفلسف الملوك مشهورة. المهم في هذا الشأن، أن سعادة الشعب ، برأي إفلاطون ، مرهونة بحكم العقلاء.

في الرباعية الثانية بعد المئة، يصف الشاعر الإنسان بالنقص، ويعزو ذلك إلى جدنا آدم:

هذه البلاهة كلها

جاءتكمُ من آدم

الشاعر مفرط في هذا الرأي. لا شك أن الإنسان مشوب بالنقص، وهذه حقيقة يتفق عليها الفلاسفة. الشاعر الشرقي يلوم الإنسان ويصفه بالبلاهة ، ويحلم في أن يأتي ذلك اليوم الذي يأتي به الإنسان الكامل، أو على حد تعبيره(الإنسان السالم) . الفلاسفةمنذ سقراط حتى الآن يصفون الإنسان بالنقص، ويسعون إلى خلق الإنسان الفاضل التام(كما عبر عن ذلك فلاسفة الأخلاق)، أو الإنسان الكامل(كما عبر عنه متصوفة الإسلام)،ونتشه لاحقا. المهم أن الفلاسفة يرون أن فضيلة الإنسان تتحقق عندما يصبو الإنسان إلى الكمال. إن هذا هو الصواب نفسه. لأن الإنسان لو خلق كاملا لما تكونت الحضارات وازدهرت المد نيات، ولو بقي الإنسان على نقصه لكان أشبه بالحيوان. إنها إذن طبيعة الإنسان في هذه الحياة. الإنسان إذن مشوب بالنقص، ولكن ليس من الحكمة أن تصفه بالبلاهة.

في الرباعية العاشرة بعد المئة، يحث الشاعر في البيت الثاني على عمل الخير:

يا لداتي كونوا سعاة إلى الخيـــــــــــــروإلا فلستمُ بلداتي

هذا شيء جميل من الشاعر ومستحسن منه، لا سيما أن حكماء الدنيا يحثون دائما على عمل الخير. اختلف مع الشاعر واعتب عليه، عندما قال في البيت الأول من الرباعية:

لا أرى العاقل الرشيد بهذا الكون إلا كآلة أو أداة

أنا أعتقد العكس تماما، لا سيما أن الشاعر يتبع كلمة العاقل بالرشيد. استقريء تاريخ البشرية،فأرى (العقلاء الراشدين) لم يكونوا آلات أو أدوات، والمجال لا يتسع لضرب الأمثلة بالتفصيل، وإلا فأمامي صور سقراط وإفلاطون وأرسطو والكندي و الفارابي وهيجلوماركس ورسل وغيرهم كثيرون.

سقراط تجرع السم لأنه قال الحقيقة، وافلاطون حورب،وأرسطو هرب من أثينا. أبو حنيفة رفض أن يكون قاضي القضاة عند أبي جعفر المنصور، وقاضي القضاة هذا يعني وزير العدل، في دولة تمتد مساحتها من الصين إلى الأندلس. والكندي سجن في مكتبته، والغزالي شرد في الآفاق، وابن حنبل ضرب بالسوط، وابن تيمية مات في السجن. وبرونو أحرق بالنار، وغاليلوأهين، ورسل اودع السجن.

في البيت الأول من الرباعية الحادية عشرة بعد المئة شعرية أكثر منها فلسفة، أو اتباع مذهب اجتماعي أو سياسي معين. ويقول الشاعر:

دعوا نظم السياسة في هدوء

وثوروا للنـظام الاجـتماعـي

لا أدري أي نظام سياسي يريد الشاعر من أبناء جيله أن يتركوه. بعد هذا هل يطلب الشاعر أن يثوروا على النظام الاجتماعي ذاته، أو يثوروا له، وهو يقول(وثوروا للنظام الاجتماعي) الشيخ علي الشرقي هنا، شاعر وليس منظرا اجتماعيا.

يقول الشاعر في الرباعية السابعة عشرة بعد المئة:

يا رؤوسا في شيبها والشباب

كـقـشور ما تحـتها من لـباب

لا شك أن الشاعر هنا يتألم من حالة التأخر الاجتماعي والسياسي في العراق خلال العشرينات، وقت نظم هذه الرباعية. الشاعر، كل شاعر طبعا، يتميز بالرهافه والإحساس، ويتميز بالاعتداد بالنفس ، وشاعرنا اعتداده واضح بنفسه، في الرباعية الرابعة والعشرين بعد المئة عندما يقول:

أنا وحدي غواص هذه اللألي ورفاقي تشق بالأصداف

للشاعر الحق، ولكل شاعر الحق في أن يفخر بنفسه وبملكاته وقدراته الأدبية، إني أعتب على شاعرنا من وجهة نظر إنسانية، فاقول ليس من حقه أن ينفي اللب من رؤوس مواطنيه. الواقع الأدبي يقول كان هناك أدباء كبار مثل الحبوبي والزهاوي والرصافي والشبيبي والكرملي وغيرهم. والواقع السياسي يؤكد وجود عقول كبيرة في الساحة مثل عبد المحسن السعدون وجعفر أبو التمن وياسين الهاشمي وجعفر العسكري وعبد الواحد سكر وغيرهم، هذا فضلا عن جيل الشباب، الذي يمثله الشاعر وأبناء جيله، من المتطلعين إلى مستقبل أفضل.

استوقفتني الرباعية الحادية والخمسون بعد المئة، الشاعر يسأل:

ما الذي سخرالعقول فســــــــــاهمن بهذه المجازر البشرية

كان رشد العلوم للناس هذا أم ظلال الغرائز الفطرية

الشاعر هنا يدرك المأساة ولكنه لا يحللها، وإنما يبقى عند حد السؤال. أغلب الفلاسفة يميلون إلى أن الإنسان شرير بالطبع، وبراهنهم على ذلك، أن الأنبياء والفلاسفة ورجال القانون منذ بدء البشرية حتى الآن يحثون الإنسان على عمل الخير بينما الإنسان يميل إلى عمل الشر إذا ما واتته الفرصة وأمن جانب الرقابة.

الرباعيتان الأخيرتان في قصيدة(صور ونزع) فيهما تأمل عقلي وتساؤل فكري عن الحياة والموت. يسأل الشاعر نفسه : من أي عالم قد أتيت، وينهي القصيدة قائلا، بأن كل شيء سيمضي:

كل شيء وفيه نور وزيت
كل شيء وفيه حي وميت
فـإلى أي عـالم أنا جهزت
ومـن أي عـالم قـد أتـيت

كل ما قلت أو سمعت سيمضي
كل ما شمت أو شممت سيمضي
كل ما قد علمت فهو سيمضي
قد مضى من أتى ومن جاء يمضي

الشرقي في غالب شعره يصبو إلى حرية الإنسان العراقي وسعادته، ويحزنه أن يجد العراق، الذي رزح تحت الظلم العثماني على مدى أربعة قرون، يراه الآن محتلا من لدن الإنجليز.

الشاعر في قصيدته(مع البلبل الطليق) يحاول بين الرمز والايحاء والصراحة أن يحلم بالإنسان الحر الذي يعيش في مدينة سعيدة. الشرقي شاعر وليس فيلسوفا، فلا نطلب منه أن ينشد الإنسان الكامل، الذي يحيا في مدينة فاضلة، كما طلبها وسعى إليها إفلاطون وأفلوطين والفارابي وغيرهم.

جميل جدا أن يطلب الشاعر العدل ويرنو إلى حكم العقل، ولكني أجد فجأة أن الشاعر يضيق صدره، فيقول في الرباعية السادسة من القصيدة:

وددت الفلك لم ينج ولم يسلم على نوح

وتبقى الأرض للنبت من القيصوم والشيح

لا شك أن الشرقي شاعر، ويحب مناجاة الطبيعة، وإن بدا متشائما بعض الشيء. لا أقول انه الهرب، ولكن الشاعر مثقل بهموم وطنه، والشاعر في غالب الأحيان مرهف، و ثائر بالطبع. الشرقي هنا يهيم بالطبيعة، وليس من الموضوعية أن أثقل النص الشعري أو أفسره تفسيرا فلسفيا،فأقارنه بفكرة جان جاك روسو التي مفادها الدعوة لرجوع الإنسان إلى الطبيعة، بينما شاعرنا يريد أن تبقى الطبيعة خالية من الإنسان.

إننا نأتي إلى سبب ضيق الشاعر بالآخرين، عندما نقرأ البيت الأخير من الرباعية السابعة عشرة:

نشدت الصحو في الناس فلم أظفر بمنشودي

أعتقد أنه ليس من حقي أن أطلق على الشاعر صفة التشاؤم، لأن واقع حال العراق في أواسط العشرينات، وهو تاريخ نظم القصيدة، كان مبتلى باحتلال إنجليزي، وإن الأمية متفشيه، في أغلب المدن، التأخر واضح، والانقسامات السياسية شائعة. في الوقت نفسه، لا أؤيد الشاعر عندما يقول أنه يطلب الصحو في الناس ولا يجده. الشيخ الشرقي يعلم وأنا أعلم، أن الصحو في العراق موجود في تلك الفترة، على الرغم من أن العراق فتح عينيه لأول مرة، بعد استعباد ثقيل من لدن الأجانب، دام سبعة قرون.

مع كل هذا نرى الشاعر بعد ذلك، يناجي البلبل داعيا إلى عمل الخير. ويقول في الرباعية العشرين:

عسى أن ننقل البذر إلى مزرعة الخير

وفي الرباعية الثانية والعشرين يقول:

معي يا بلبل الروضة من لحن إلى لحن
معي نـنـزل لـلأرض ونعلي قيمة الـفن

أما في قصيدة(مع البلبل السجين)، فيخيل لي أن الشاعر يناجي نفسه، ويرمز لها بالبلبل، وهذا حال الشاعر والفيلسوف معا، لكن الفرق بينهما أن الشاعر يشكو آناً ويغني تارة أخرى، بينما الفيلسوف يحاول أن يجد الحلول ما استطاع إلى ذلك سبيلا. النفس عند سقراط-مثلا-سجينة في الجسد وأن الجسد بمثابة السجن لها،

والنفس تسعى للتخلص منه بممارسة الفضيلة. إفلاطون يرى أن الإنسان سجين كهف مظلم، وهو يحيا في ظلم وهم، حتى يرقى عن طريق المعرفة، ومن ثم يدرك نور الحقيقة.

الشاعر يرى في الرباعية الثانية، أن الرجل الصريح لا يصادف النجاح في حياته:

أصريحٌ وكل دنياك رمز ومتى صادف النجاح الصريح

هذا حكم أخلاقي ، اتفق فيه مع الشاعر، وهو حكم- برأيي- فيه كثير من الصحة.
في الرباعية الثانية عشرة، يقول الشاعر:

إن دنيا أغرت رفاقي دنيا طوبيات تصوغها أحلام

يبدو أن الشاعر يمس جوانب فكرة المدينة الفاضلة عند الفلاسفة ، وأظن أنه يقصد بكلمة (طوبيات) اليوتوبيا التي تعني المدينة الخيالية أو المدينة الفاضلة. الشاعر هنا يزهد بذلك كما افهم من البيت المذكور مع العلم أنني أعرف أن أحلام الفلاسفة هي التي جعلتهم يكتبون عن المدن الفاضلة ويسعون إلى تحقيقها.

أعتقد أن البشرية سعدت كثيرا بتخطيط المدن أو على الأقل فإن الإنسانية قد تخلصت من كثير من الادران السياسية، ومن ظلمات الكهوف الاجتماعية.

في الرباعية الثالثة عشرة أقرأ البيت الآتي:

إنني قد غدوت أنعم بالشك لأني منغصٌ باليقين

لا شك أن الشاعر هنا ينحو منحى الفلاسفة، في النظر إلى الشيء قبل أن يحكم عليه. يذكرني هذا البيت بمثيل له لابن سينا، مع اختلاف المعنى طبعا. قال ابن سينا لأحد أصدقائه، وابن سينا في السجن:

دخولي في اليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

في الرباعية الخامسة عشرة تتجلى نظرة الشاعر للدنيا بتأمل واضح، وذلك أن الدنيا زائلة والعمر قصير ولهذا يجب عدم اهتمامنا بالمصير. أكتفي بذكر البيت الأخير من الرباعية:

بلبلي إن يكن مصيرك هذا فعلام اهتمامنا بالمصير

استوقفني في الرباعية السادسة عشرة البيت الأخير:

جوهر الفرد أن يقدم للمجموع من روحه جواهر فرد

يمكنني أن أفسر البيت تفسيرا أدبيا وأخلاقيا وأكتفي.**لكنني أود أن أشير إلى أن الاصطلاح الفلسفي الذي استعمله الشاعر هنا وهو(الجوهر الفرد) وقد أطلق عليه بعض الفلاسفة** والمتكلمين(الجزء الذي لا يتجزأ) .وهو مذهب مشهور عند فلاسفة الذرة في الإسلام. لا شك أن الشيخ علي الشرقي درس هذا الاصطلاح الفلسفي من خلال دراساته الأدبية والدينية لكنه استعمله أدبيا ولم يستخدمه فلسفيا.

الشاعر ما يلبث أن يتفاءل بالمستقبل عندما يقول في الرباعية الرابعة والعشرين:

"سنغني غدا بمزرعة الآمال دنيا ملأى بسجع البلابل

;لا شك أن في الرباعية السادسة والعشرين مسحة فلسفية دينية عندما يشبه الشاعر الأرض بالسجن:

أيها البلبل المعلق في السجن سلام والأرض سجن معلق

إذا أردت أن أعطي البيت تفسيرا سياسيا فلسفيا فاقول أن العدل في الأرض مفقود وأن الظلم موجود. أما التفسير الديني فلا أشك أن الأرض دار فناء وإننا سجناء فيها ننتظر الانتقال إلى دار البقاء.

للشاعر آراء في الصداقة يبدو أنه قالها بعد تجربة وخبرة بالناس. أذكر البيتين الآتيين من الرباعية الثامنة والثلاثين:

أسريعاً ثوب الصداقه يبلى فهو يحتاج دائما لريافة

وحده البلبل المغرد خير من شباك الصداقة الخطافة

إذا كان الشاعر قال ذلك عن تجربة فله الحق في ذلك. وإذا قالها عن حكمة فإن أغلب الفلاسفة يحذرون من خداع الآخرين.هذا أرسطو، فيلسوف اليونان الشهير،يقول عن الصداقة ساخراً:(يا أصدقائي ليس هناك صديق).الفيلسوف العربي المسلم ابن حزم الأندلسي يحذر من الاندفاع في الصداقة، ويوصي بعدم كشف الأسرار للصديق والتأني بالمعاملة مع الآخرين. في العصر الحديث مقولة الفيلسوف الفرنسيي سارتر مشهورة (الجحيم هم الآخرون).

الشاعر الشرقي يقترب من هذه الأفكار عندما يقول في الرباعية الحادية والأربعين:

كن بعيدا أو كن قريبا فشر الصحب لا بالبعيد لا بالقريب

الشاعر على ما يبدو يعاني من عدم صدق صداقة الآخرين لذا فهو يعود في الرباعية التاسعة والسبعين فيقول متشكياً:

إنني قد خدعت قبلك بالناس وما لفقوه والحر يُخدع

تبدو لي الرباعية الثالثة والأربعون سقراطية المبنى إفلاطونية المعنى ممتزجة بشاعرية أخاذة رقيقة. تلك النظرية الفلسفية التي تذهب إلى أن الجسد سجن للنفس وأن النفس تبغي الحرية والطلاق. أعرض الرباعية:

أيها البلبل المعلق في السجن سلام مرآك أم أنت توحي
قفص أنت فيه قد هتك السر فهذي روحي وذا سجن روحي
قبعت في قرارة السجن حيرى بعد تحليقها وبعد الطموح
إنني ما لقيت أيتها الروح مناك فأينما شئت روحي

في البيت الأخير من الرباعية الخامسة والأربعين:

بلبل الدار قل لي جاري شدواً هادم أنت والطبيعة تبني

ربما كان الهدف القريب من البيت هذا سياسيا. ولكنني أستطيع أن أحمله معنى علمياً. وذلك أن الإنسان مهما ضرب الآخرين بالقنابل الذرية والصواريخ الفتاكة وقتل الكثير من الحيوان في الغابات فهناك نظرية تقول أن دورة الطبيعة تصحح كل شيء وتعيد كل شيء إلى مجراه الطبيعي. الإنسان يبقى، والحيوان يتكاثر، والمياه تجري في الطبيعة بنظام محكم دقيق لتصلح كل جدب، وتعمر كل خراب من جديد. لا بأس أن أردف البيت الثاني من الرباعية الخمسين، لأنه جاء بالمعنى أو أنه يكمل المعنى :

سحب تحمل الحياة إلى الأرض فنجلو من الموات خمائل

كنت أتمنى أن يكتب الشاعرالبيت المذكور على الوجه الآتي:

سحب تحمل(المياه) إلى الأرض (فتجلو) من الموات خمائل

لأن السحب تحمل(المياه). والمياه هي(تجلو). وعملية الحياة بعد ذلك معقدة ما بين ماء ونار وتربة وهواء. إنها عملية الخلق التي لابد أن تتوافر فيها العناصر الأربعة.

إذا كانت قصيدة(مع البلبل السجين) قصيدة رمزية تصف حالة العراق وقت ذاك، وأن الشاعر الذي هو البلبل السجين الذي يطلب الحرية والانعتاق، أقول أن الرباعية الرابعة والخمسين هي بيت القصيد من حيث المعنى المتضمن في الرباعية، وذلك لأن الشاعر أورد فكرة واقعية رائعة، وهي أن البلبل المحبوس لا يجيد الغناء:

أيها البلبل المعلق في السجن سـلام خـدعـت بالـتـدلـيـس
أحـتكـاراً تـخـيروك جـليسـاً واحترازاً رفغت فوق الرؤوس
بـطـرٌ بـلّـد الطـباع فاضحت تستـطيـب الغـناء من محبوس
بلبلـي مـن حسـبتهم أقـوياء برهـنوا أنهم ضعاف النـفـوس

يعود الشاعر في الرباعية السابعة والستين فيؤكد رأيه قائلا:

منبر السجن لا يليق بشاد إنما منبر البلابل عود

ويلحق ذلك في الرباعية الثالثة والثمانين مؤيداً:

لا تغرد وأنت في السجن ماسور فإن الغناء في السجن شكوى

في البيت الثالث من الرباعية الخامسة والخمسين:

ما التذاذٌ بأن يدوم التذاذٌ مستمراً فالعيش حال وحالُ

فكرة عميقة رائعة يطرحها الشاعر بفكر ثاقب من محصل دراسة علمية. الشاعر مصيب فيما ذهب إليه، فلا اللذة تدوم ولا الألم. رب سائل يسألك هل نحن نعيش إذن في حالة لذة أو ألم؟ الجواب هو أن حالتنا

الطبيعية لا لذة فيها ولا ألم. نحن الآن- مثلا- لا نشعر بالعطش ولا بالجوع ولا بالمرض، حالتنا إذن طبيعية. الشيء السابق إلى الجسم هو الألم وليس اللذة، فنحن نشعر بالعطش أولا، فنتألم، وإذا شربنا نلتذ حتى نرتوي. ولكن إذا زاد الماء عن حده يتحول إلى ألم، وهكذا.

نظرية اللذة والألم نظرية فلسفية كبيرة، تناولها من فلاسفة اليونان إفلاطون وأرسطو ،ومن فلاسفة المسلمين الطبيب أبو بكر الرازي والإمام أبو حامد الغزالي، وفي الفلسفة الحديثة توماس هوبز وسبينوزا وغيرهم كثيرون على إمتداد تاريخ الفلسفة في مختلف العصور.

الشاعر بعد ذلك يبشر الطير السجين بالإطلاق في الرباعية التاسعة والخمسين :

أيها البلبل المعلق في السجن سلام ما بال عينيك حيرى
سيعود الربيع والسجن ينسى بينما أنت لم تزل بعد طيرا
ويطوف الإسراء في عالم اللطف يناديك من سماء لأخترى
وهدايا الآمال تأتيك يا بلبل حرية وطيباً وطهرا

يعبر الشرقي في الرباعية الرابعة والسبعين عما يعرف الآن عند الفلاسفة والأدباءعلى السواء بحالة التمزق أو الإغتراب. الشاعر يعبر عن ذلك تعبيرا مرهفاً دقيقاً عميقاً جامعاً مانعاً عندما يقول:

إن تكن قد سجنت يا طير جسما فأنا قد سجنت روحا وجسما
بهمومي أكلت نفسي بنفسي والليالي قضمن جسمي قضما

في الرباعية الثمانين يستعمل الشاعر فكرة علاقة الروح بالجسم، وهي لا شك فكرة دينية وفلسفية أيضا :

فتنةٌ هذه البلابل في الأقفاص مثل الأرواح في الأجسام

يتفلسف الشاعر حائرا في الرباعية الرابعة والثمانين:

حيرةٌ هذه الحياة وبلوى ما استقامت لصدفة أو لقصد

أبو العلاء المعري هو أيضا حار وتفلسف في تقرير حالة الإنسان عندما قال:

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

كم كنت أتمنى لو أن الشاعر حذف البيتين الأخيرين من هذه القصيدة الرمزية الجميلة. إنهما البيتان الأخيران من الرباعية المائة ،وهي الرباعية الأخيرة طبعا ،حين أنهى الشاعر قصيدته قائلا:

بالصريح الفصيح كاشفت شعبي وتركت الرموز للحلاج

ليس عند الحلاج نفع لشعب هو في حاجة إلى الحجاج

لا أدري لماذا ذهب الشاعر هذا المذهب؟ هل أن الشاعر يفضل للشعب سيف الحجاج على قلم الحلاج؟ الأمر عندي يختلف طبعا، فأنا أرى أن الحلاج من قادة الفكر في تاريخنا الثقافي. أما الحجاج فهو من الولاة الاقوياء. الحجاج فضلا عن كونه شجاعا وكريما، فهو قائد مشهور، استطاع بفضل حكمته وبعد، نظره أن ينشر الإسلام في أواسط آسيا وربوع الهند. بفضل تجهيزه وإمداده جيشين منتصرين مجاهدين في سبيل نشر الإسلام بقيادة محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي. الحجاج الذي كان واليا على العراق، لم يكتف بمد هذين الجيشين الكبيرين بالرجال والسلاح، بل كان يزودهما بالخطط والنصائح وحسن التوجيه لما فيه خير العرب والمسلمين ولما فيه نصر مؤكد للإسلام.

****

المصادر

1- ديوان علي الشرقي، جمع وتحقيق إبراهيم الوائلي وموسى الكرباسي، طبعة بغداد ١٩٨٦.

٢- ابن حزم الأندلسي : الأخلاق والسير في مداواة النفوس، بيروت١٩٧٩
٣- افلاطون:فيدون
٤- افلاطون: كتاب الجمهورية
٥- ارسطو:كتاب الشعر
٦-ا بوبكر الرازي:كتاب الطب الروحاني
٧- الغزالي:المنقذ من الضلال
٨- الجاحظ: البيان والتبيين
٩- أبو حيان التوحيدي:الامتاع والمؤانسة
١٠- جميل صدقي الزهاوي: ديوان الزهاوي
١١- احمد الصافي النجفي: ديوان الصافي النجفي
١٢- عمر الخيام: الرباعيات
١٣- عبد الكريم الجيلي : الانسان الكامل
١٤- الفارابي:آراء أهل المدينة الفاضلة
١٥- توماس مور:اليوتوبيا
١٦- بينيس:مدهب الذرة عند المسلمين
١٧- أرسطو:الاخلاق النيقوماخية
١٨- أبو العلاء المعري: لزوم ما لا يلزم
١٩- المتنبي: ديوان المتنبي
٢٠- ناجي التكريتي:الفلسفة الأخلاقية الافلاطونية عند مفكري الإسلام.